القسم الثانى

أولا:

آراء فى اللغة صائبة لابن خلدون

آراءٌ سديدةٌ - لابن خلدون

– عبد الرحمن ابن خلدون[1] –رحمه الله تعالى – من القلائل، فى التراث العربى الإسلامى الذين وهبوا عقلا مفكرًا قادرًا على «التحليل» بكفاءة.

– ومع ذلك.. فالرجل أبدى آراءً فى أمور كثيرة.. بعضُها يُعَدُّ مما هو متخصص به، كالتاريخ، والسياسة، والاجتماع. وبعضُها يعد مما هو غير متخصص به – كالنحو والبلاغة، والنقد واللغة، ولهذا.. فهو يسهل عليه أن يصف بعض النحاة، بأن أحدهم إذا أراد أن يكتب سطرين لصديقه لا يستطيع. لأنه لامسَ ذلك بنفسه من النحاة المحترفين.

---

(١) سبق بيان (علة) كتابة (ابن) أينما وردت، وفى بدنها – ألف – ونعيد العلة – هنا – بتعبيرات أخرى. أينما وردت (ابن) أكتبها وفى أولها (ألف) ولم أفرق بين الحالة التى يسبقها فيها علم والتى لا يسبقها فيها علم، لأن التفريق بين الحالتين ليس له مسوغ معقول. هذا.. فضلًا عن أنه يبلبل الناشئة، ويصعب عليهم التعلم، والتيسير يقتضى إيرادها دائمًا. يضاف إلى ذلك.. أن الناس يقرأون المكتوب، (ومعهم حق) ولذلك يقولون: (بن بركة) بدل (ابن بركة) و(بنْ لادن) بدل (ابن لادن)، حتى عندما يسبق الاسم الأول يقولون: (أسامة بنْ لادن) بدل (أسامة ابن لادن).

– بَيْدَ أن الرجل – لخوضه فى تخصصه – وفيما ليس من تخصصه – أصاب فى بعض آرائه وأخطأ ببعضها الآخر ، وهو ما سبق أن عرضناه، فى القسم الأول من هذا البحث.

– ومما أصاب به هو ما سنقدمه. فى هذا القسم، تحت عنوانين: الأول – آراء فى اللغة صائبة انفرد بها. والثانى – مقارنة ما جاء به من سديد القول فى اللغة (ومع آرائه – آراء الإمام الجرجانى).. مع ما جاء به كاتب غربى هو – ناحوم تشومسكى).

○○○

obeikandl.com

آراء صائبة انفرد بها ابن خلدون

١ - إن من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة فى صناعة أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، ورسخت فى نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء؛ إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد، ولم ترسخ صبغتها، والسبب فى ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان؛ فلا تزدحم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادًا لحصولها، فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعفَ. وهذا بَيِّنٌ يَشْهد له الوجود. فقلَّ أن تجد صاحب صناعة يُحكمها، ثم يُحكم من بعدها أخرى، ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجادة. حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية؛ فقلّ أن يجيد ملكة علم آخرَ على نسبته؛ بل يكون مقصرًا فيه إن طلبه؛ إلا فى الأقل النادرِ من الأحوال[1].

---

(١) المقدمة، ص ٧٢١.

تعليـق:

(قول ابن خلدون السـابق من الأقوال النيّرة التى يشهد لها الواقع – وتحليله لأسبابها صحيح. وقد فصلنا الكلام فى هذا (فى القسم الأول)، عندما عللنا لمثل هذا... بأن الأديب لا يجيد الشعر، والنثر –معًا – وإنما يجيـد أحدهما، وإذا حاول الاثنـين معًا جاءت رتبته، دون الذى يقف عند فَنّ واحد. ومثل الأدب[1].. سائر الصناعات.

٢ - إن الصنائع تكسب صاحبها عقلًا وخصوصًا الكتابة والحساب

(قـد ذكرنا فى الكتـاب أن النفس الناطقة للإنسـان، إنما توجد فيـه بالقوة[2]. وأن خروجها مـن القوة إلى الفعل إنما هو تجدُّد العلوم والإدراكات عـن المحسوسـات أولًا؛ ثـم ما يكتسـب بعدهـا بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكًا بالفعل وعقلًا محضًا؛ فتكون ذاتًا روحانية وتسـتكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكـون كل نوع من العلم والنظـر يفيدها عقلًا مزيدًا. والصنائع أبدًا.. يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مسـتفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيـد عقلًا، والملـكات الصناعية تفيد عقلًا؛ والحضـارة الكاملة تفيد عقـلًا؛ لأنهـا مجتمعة من صنائع فى شـأن تدبير المنزل، ومعاشـرة

---

(١) انظر: من القسم الأول: عنوان (ترسل الإسلاميين وخطبهم).

(٢) قولـه: (إن النفـس الناطقة للإنسـان، إنما توجد فيه–بالقـوة–)، أُفضّل على كلمة –بالقوة – التى هى من اصطلاحات الفلاسفة، أفضل كلمة –بالإمكان – لأن القوة فى الشـىء.. فعل قائم ظاهر، وليس مجرد «اسـتعداد»، أما كلمة –الإمكان – فلا تعنى الفعل المائل، وإنما تعنى الاسـتعداد لتلقى الشىء واستيعابه فإذا نفذته أصبح «قوة». أما يقال: فرق الأمن المضربين بالقوة.

أبناء الجنس، وتحصيل الآداب فى مخالطتهم؛ ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنتظم علومًا، فيحصل منها زيادة عقل[1].

٣ - إن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها فى تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربى:

والسّر فى ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هى المعانى الذهنية والخيالية. [الخيالية هى][2] ؛ العلوم الشرعية، التى هى أكثر مباحثها فى الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة...، وهى كلها فى الخيال؛ [والذهنية هى]؛ العلوم العقلية، وهى فى الذهن. واللغات إنما هى تَرْجُمان عما فى الضمائر من تلك المعانى...[3]. والألفاظ واللغات وسائط. ولا بد فى اقتناص تلك المعانى من [امتلاك] ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون فى مباحثها الذهنية من الاعتياص، وإذا كانت ملكته فى تلك الدلالات راسخة. بحيث تتبادر المعانى إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهى والجبلى، زال ذلك الحجاب بالجملة بين المعانى والفهم، أو خفّ؛ ولم يبقَ إلا معاناة ما فى المعانى[4] من المباحث فقط. هذا كله

(١) المقدمة، ص٧٦٧.

(٢) حذفنا حرف الجر (من) والظرف (بين) لكى تستقيم العبارة. وبدأنا العبارة بتعبير [فالخيالية هى] وضعناهما بين معقوفتين. وحذفنا (بين) قبل كلمة (العلوم) ووضعنا مكانها: [والذهنية هى] بين معقوتين، لكى تستقيم العبارة. وهذا. من خطأ النساخ أو الطابعين.

(٣) حذفنا العبارات التى لا تخدم الموضوع.

(٤) يقصد ابن خلدون (بالمعانى التى فى المباحث) – العلم الذى فى نوع المبحث،=

إذا كان التعليم تلقينًا وبالخطاب والعبارة. وإذا كانت ملكته فى الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعانى. وصار إنما يعانى فهم مباحثها فقط[1].

٤- علم النحو:

أعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده. وذلك العبارة فعل لسانى ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكةً متقررةً فى العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسَن الملكات وأوضحَها إبانةً عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى. مثل الحركات التى تُعَيِّنُ الفاعل من المفعول من المجرور أعنى.

المضاف، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال أى الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم فى مخاطباتهم أطولَ مما نقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «أوتيتُ جوامعَ الكَلِم واختُصِرَ لى الكلامُ اختصارًا»[2].

وخشىَ أهل العلوم [فى اللغة] منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا،

= فإذا كنت - مثلًا - تقرأ قصة.. ولغتها بنفس مستوى اللغة التى تتعلم فيها قانونًا فيزيائيًا - فأن تحصيلك لمعانى القصة.. أسهل من تحصيلك لمعانى القانون الفيزيائى.

(١) المقدمة، ١٠٥١.

(٢) سبق ذكر المرجع، وهو صحيح البخارى.

فينغلــق القرآن والحديث على المفهوم؛ فاســتنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شِبْهَ الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه[1]. مثلُ أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع.

○○○

(١) الذيــن جعلوا قياس اللغة على (الأعم الأغلب) منها – إنما هم نحاة البصرة من الفــرس، (وخالفهــم الخليل بن أحمد – العربى نحيزة) أقــول: والاكتفاء بالقياس على الأعم الأغلب – يضر باللغة.

وأصحّ من منهج البصريين هذا – منهجُ – الكوفيين؛ فقد قاســوا على القليل – كما قاســوا علــى الكثير، وهذا.. هــو الصواب فى اللغــة، لأن اللغة.. لا تنمــو ولا تواكب تطــور الحياة إلا إذا اســتثمرت جميــع إمكاناتها. وإن ابن خلــدون – البصرى المذهب النحــوى – لم يــدرك هذا. (انظر: « رُؤىً – نحوية وصرفيــة – تجديدية » – جـع/ ١١-٤٠ – مرجع سابق.